سلطنة دارفور

تاريخها و بعض مظاهر حضارتها

شهد القرن السابع عشر الميلادى ، قيام سلطنة إسلامية فى إقليم دارفور ، ولم تلبث هذه السلطنة — التى عرفت باسم هذا الإقليم — أن احتلت مكاناً بارزاً بين مجموعة الممالك السودانية الإسلامية ، الواقعة على طول نطاق السافانا ، بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال ، و بين الغابات الاستوائية فى الجنوب . وتمتد من البحر الأحمر شرقاً ، إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، وتشمل ممالك سنار ، وكردفان ، ودارفور ، ووداى ، وبجرمى والكانم — أو برنو ، وممالك الهوسا ، ثم مملكة مالى .

ويتصف الإقليم الذى قامت فيه سلطنة دارفور بصفات طبيعية خاصة ناشئة من الوضع الجغرافى لهذا الإقليم . ففى الشمال ، ينتهى إقليم دارفور عند الصحراء الليبية ، وهذه الصحراء تمتد إلى البحر المتوسط ، فى مساحات غير ذات ماء أو زرع ، تمثل حاجزاً مانعاً لامتداد الفور شمالاً ، ماعدا بعض الواحات الجنوبية ، التى استطاع الفور الوصول إليها ، و بسط نفوذهم عليها فى بعض الأحيان . وفى شرق إقليم دارفور ، سلسلة عريضة من التلال الرملية تعرف بالأقواز ، وهذه تحجز بينها و بين جارتها كردفان . وفى جنوبى دارفور حاجز من نوع آخر ، هو بحر العرب ، والمنطقة التى ينتشر فيها ذباب تسى تسى ، وهذه المنطقة تمنع الفور من الانتشار فى هذا الاتجاه . أما من الناحية الغربية من إقليم دارفور ، فليس بينها وبين المساحات الممتدة غرباً مثل ، وداى ، و بجرمى ، ومنطقة تشاد ، حواجز جغرافية ، ولا فروق جوية أو نباتية ، بل خضعت حدود دارفور من تلك الناحية ، إما لعوامل سياسية أو قبلية(١) .

---

(١) Lampen, G.D.: "History of Darfur". S.N.R., XXXI, part II, pp. 177-178.

ويتقسم إقليم دارفـور من حيث التضاريس إلى ثلاث مناطق عرضية : ففي الشمال منطقة برارى وسهوب ، تتخللها تلال وأودية ذات أشجار وأعشاب ، وأهلها من البـدو وأشباه البدو ، وقوام حياة هؤلاء وأولئك الجمل . وفى الوسط منطقة جبلية ، أ كثر مطراً ، بالقياس إلى المنطقة الشمالية وتقوم حياة أهلها على الزراعة . وفى الجنوب منطقة رعوية ، كثيرة الأمطار ، وقوام حياة أهلها تربية الماشية . ولعل أبرز ظاهرة طبيعية فى إقليم دارفور ، هى سلسلة جبال أشهرها جبل مرة ، وهذه تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب ، وتصل أعلى قممها فى الجنوب إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر(١) .

ويؤدى إلى إقليم دارفور ، طريقان صحراويان : أولهما درب الأربعين من أسيوط ، وثانيهما الطريق الليبي والطرابلسى ، ويستغرق نيفاً وأربعين يوماً . وظل هذان الطريقان ، وسيلة الاتصـال التجارى والحضارى ، فيما بين دارفور ومصر وطرابلس ، عبر الأجيال والعصور ، حتى العصر الحديث ، حيث امتدت السكة الحديدية من الخرطوم إلى الأبيض ، وأخيراً إلى نيالا ، فتغيرت وسائل النقل ، وبطل استعمال هذين الطريقين القديمين(٢) .

ويتصف إقليم دارفور كذلك بصفات بشرية خاصـة منشؤها ، تعـدد سلالاته ، واختلاف ثقافات سكانه ، ذلك أن هـذا الإقليم تتنازعه سلالات بشرية مختلفة ، بعضها قديم ، وبعضها الآخر مهاجر إليه من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، مما أدى إلى تعقيده جنسياً وثقافياً ، ولو أنه شملت جميع سلالاته تقريباً ، الثقافة العربية ، والديانة الإسلامية . غير أن تأثر سلالاته بالثقافة العربية والديانة الإسلامية ، تختلف عمقاً وسطحية من سلالة إلى أخرى حسب نشأة كل

---

(١) Ibid : Op.Cit., p. 178.
C/f. Arkell, A.J. : 'The History of Darfur'. S.N.R. XXXII, part I, pp. 38-39.

(٢) Balfour - Paul, H.G. : History and Antiquities of Darfur p. 2.
Lampen, G.D. Op.Cit., p. 178.

منها ، ومدى قدمها أو قرب عهد هجرتها واختلاطها بالعرب الطارئين . و يبـدو مدى التعقيـد الجنسى والثقافى فى إقليم دارفور ، إذا علمنا ، أنه يشتمل على نحو ثمانى عشرة سلالة غير عربية(١) . تتحدث إثنتا عشرة لغة مختلفة ، بالإضافة إلى اللغة العربية ، التى تعرفها الغالبية العظمى من سكان دارفور(٢) .

ومما لا شك فيه أن الفور هم أصحاب البلاد الأصليون ، ويستقلون بالمنطقة الجبلية الوسطى، وبها جبل مرة(٣). ومنذ حوالى القرن السابع الميلادى ، وفد على هذا الإقليم قبـائل من الشمال عن طريق النيل من ناحية، وعن طريق الصحراء من ناحية أخرى . فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية من الميدوب والبرقد ، على حين جاءت جماعات ليبية من البدايات والزغادة من شمال إفريقيا. واستطاعت هذه القبائل النوبية والليبية ، بفضل ما امتازت به من الغلبة العقلية ، وما لديها من وسائل حربية جديدة ، أن تطرد جمـاعات السود إلى الجبال ، وأن تقيم فى هذه المنطقة ممالك خاصة ، وأدت هذه الهجرات الشمالية كذلك إلى ازدياد تجارة الرقيق ، كما يشير إلى ذلك الإدريسى المتوفى سنة ١١٥٣ م(٤) .

أما الهجرات العربية الرئيسية إلى هذا الإقليم ، فيبدو أنها جاءت من مصر وشمال إفريقيا ، عبر السهوب والبرارى الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد ، وذلك بعد أن قامت فى مصر وشمال إفريقيـا دول إسـلامية مستقلة كالطولونيين والإخشيديين ، والأدارسة والفاطميين والمماليك ، وبنى مرين ، وبنى حفص . والمعروف أن القبائل العربية التى هاجرت إلى إقليمى كردفان ودارفور ، كانت تحترف رعى الإبل ، ولما انتقلت جماعات منها إلى الجنوب ، لم تلبث أن استبدلت

---

(١) MacMichael, H.A. : A History of the Arabs in;the Sudan Vol'I . pp. 52-89, Lampen, G.D. Op.Cit., p. 181

(٢) Arkell, A.J. : Op.Cit., p. 51.

(٣) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91.
Lampen, G.D. : Op 'Cit., pp. 181-182.

(٤) C/f. Balfour — Paul, H.G. : Op. Cit., p. 7.

البقر بالإبل ، ومن ثم عرف هؤلاء بالبقـارة ، على حين ظل أبناء عمومتهم فى الشمال يرعون الإبل(١) .

وعلى الرغم من أن قبائل البقارة والأبالة فى كردفان ودارفور ، تضم بطوناً من قبائل عربية من غير جهينة ، إلا أنه غلب عليهم جميعاً النسب إلى جهينة(٢). والمعروف أن الأقاليم التى احتلتها القبائل الجهنية وغيرها لم تسكن خالية من السكان، بل اشتملت على عناصر حامية فى الشمال وعناصر زنجية أو شبه زنجية فى الجنوب . ولذا فإن اختلاط القبائل الجهنية من الأبالة بالعناصر الحامية فى الشمال ، لم يؤثر كثيراً فى صفاتها الجسدية ، على حين أن القبائل الجهنية ، التى انتقلت جنوباً ، وهى البقارة ، اكتسب أفرادها بعض الصفات الزنجية ، لاتخاذهم زوجات وإماء من الزنجيات . ومع أن البقارة لم يكونوا أقوى عنصر فى دارفور فإنهم استطاعوا أن يشطروا هذا الإقليم شطرين ، فاحتلوا السهول الواقعـة جنوبى جبال مرة ، وحصروا الفور شمالا فى منطقة الجبال ، حيث بقوا أجيالاً بعد أجيال ، على حين دفعوا قبائل الشط والبنجا والبندا والفروجية جنوباً إلى إقليم المستنقعات شمالى بحر الغزال ، حيث عرفوا باسم القرتيت(٣) .

وعلى هذا يمكن تقسيم سكان دارفور الحاليين إلى مجموعتين : إحداها وهى المعروفة بالمجموعة غير العربية ، والأخرى هى المجموعة العربية . أما المجموعة الأولى، فإنها تضم — فضـلاً عن الفور أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المنطقـة الجبليـة الوسطى — المساليط والإرنجا والقمر فى الغرب ، والزغاوة والقرعان والبدايات فى الشمال ، والميدوب فى الشمال الشرقى ، والبرتى والبرقد فى الشرق ، والداجو والبيقو فى الجنوب الشرقى ، والفلاتا فى الجنوب ، والتنجور فى الوسط(٤).

---

(١) Lampen, G.D.. Op. Cit., p. 182.
(٢) راجع محمد عوض : السودان الشمالى ، ص ٢٠٩ — ٢٥٠ .
(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 182-183.
(٤) Balfour-Paul, H.G.: Op. Cit., pp. 7-8.
C/f MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 52-91.

أما المجموعة العربيـة فإنها احتلت السهول وتضم الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنى هلبة والمماليا فى الجنوب ، والحمر فى الشرق ، والزيادية فى الشمال والماهرية والمحاميد وبنى حسين فى الغرب[١] .

* * *

أما عن تاريخ هذه البلاد ، فليس لدينا عنه شيء مكتوب ، ومن ثم فإن المعلومات القليلة التى وصلت إلينا خاصـة بتاريخها ، تعتمد أساساً على الروايات الشفوية التى حفظها أهل البـلاد جيلاً بعد جيل[٢] . وهى روايات يكتنفها التناقض أحياناً ، والغموض أحياناً أخرى ، ولذا تعين على الباحث فى تاريخ دارفور ، الرجوع إلى ماسجله عن تاريخها ومظاهر حضارتها ، الرحالة الذين زاروا هذه البلاد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد .

وأول أولئك الرواد الذين زاروا إقليم دارفور ، الرحالة الانجليزى براون W. G. Browne[٣]. وذلك فى عهـد سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . وسلك براون فى رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسيوط إلى الفاشر ، وظل فى دارفور نحو ثلاث سنوات ، من يوليو سنة ١٧٩٣م إلى مارس سنة ١٧٩٦م ، إلا أنه ظل فى أثنائها شبه سجين ، فلم يسمح له بالتجول فى البلاد ، أو جمع معلومات عنها بسبب ارتياب السلطان فى نواياه باعتباره أوربياً مسيحياً ، وفى المهمة التى من أجلها جاء هذا الأوربى المسيحى إلى دارفور . ثم أن براون لم يعثر فى دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد ، ولذا جاءت المعلومات التى استطاع الحصول عليها من أهلها قليلة سطحية ، يشوبها الاضطراب وعدم العمق ، وذلك باستثناء بعض ملحوظات خاصة بأحوالها الاقتصادية وقتذاك[٤].

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٢٣٨ — ٢٥٠ .

(٢) Batrh, H. Travels in Central Africa Vol. III, p. 425.

(٣) Browne, W.G.: Travels in Africa, Egypt and Syria.

(٤) Arkell, A.G.: Op. Cit., p. 40.

و بعد حوالى سبع سنوات من رحلة براون إلى دارفور ، أى فى عام ١٨٠٣م زار هذه البلاد رحالة عربى ، هو محمد بن عمر التونسى ، وأتيح للتونسى أن يلم إلماماً واسعاً بأحوال دارفور الاجتماعية والاقتصادية ونظمها السياسية والإدارية والحربية ، وعلاقاتها بجيرانها ، فضلاً عن ذكر تاريخها فى كتابة القيم : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان »(١) .

وفى المدة من عام ١٨٤٩م إلى عام ١٨٥٥م قام الرحالة المعروف هنرى بارت Henry Barth برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد ، وقد ارتاد خلال هذه المدة بلاد السودان ما بين تمبكت و بجرمى . والمعروف أن بارت لم يقم بزيارة دارفور أو واداى ، ولكنه استطاع — أثناء مقامه فى برنو — أن يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم ، معتمداً فى ذلك على بعض الروايات الشفوية التى نقلها عن أهل البلاد أنفسهم ، فضلاً عن إشارات قليلة لبعض المؤلفين القدامى من العرب(٢) .

وفى عام ١٨٧٤م ، وصل الرحالة الألمانى جوستاف ناختيجال Gustav Nachtigal إلى دارفور ، بعد أن أنفق ستة أعوام تقريباً فى رحلته التى بدأها من طرابلس الغرب متجهاً إلى دارفور ، عن طريق بحيرة تشاد و بجرمى وواداى . وفى مدينة الفاشر عاصمة دارفور وقتذاك ، قضى ناختيجال ستة شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة ، عن تاريخ دارفور الوسيط ، بمساعدة السلطان إبراهيم بن محمد حسين ، وأحد الأمراء الفوراويين ، واسمه باسى طاهر . وعلى الرغم من هذا فإن ناختيجال لم تتح له الفرصة الكاملة لدراسة إقليم دارفور دراسة كافية ، تتفق ومواهبه الفذة . ذلك بأن السلطات

---

(١) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .
تحقيق عساكر ومسعد .

(٢) Barth, H.: Travels in Central Africa Vol. III, pp. 528-553.

الحاكمة فى دارفور ، لم تسمح له بالتجول فى أنحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسى الذى يقطع دارفور من الغرب إلى الشرق . ثم أنه جمع بياناته عن دارفور فى مدينة الفاشر . وقد يكون هذا راجعاً إلى ارتياب السلطان فى مهمته ، لاسيما وأن الحكومة المصرية كانت تستعد آنذاك لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التى كانت تحت إدارتها . وتقع رحلة ناختيجال المسماة Sahara und Sudan فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، أشرف المؤلف بنفسه على نشر الجزءين الأولين منها ، ومات قبل أن يراجع ما أملاه من مذكرات خاصة بالجزء الثالث ، وهو الجزء المتعلق بواداى ودارفور . فقام أحد أصدقائه بإخراج هذا الجزء من مذكراته . ورغم القصور الذى لازم الجزء الأخير من رحلته إلى واداى ودارفور ، فانه يعد مصدراً أصيلاً لتاريخ هذين الإقليمين ، ولا سيما مايتعلق بتاريخ الأسرة الحاكمة فى دارفور ، ونظم البلاد السياسية والإدارية فى عصره(١) .

هذا عرض موجز للرحالة الذين أسهموا بجهودهم فى محاولة إجلاء بعض ما غمض من تاريخ سلطنة دارفور . وسواء أكان الهدف من هذه الرحلات التى قام بها أولئك الرحالة ، خدمة مصالح استعمارية ، أو البحث عن الحقيقة وخدمة العلم ، فإنهم كانوا جميعاً — باستثناء محمد بن عمر التونسى — موضع ارتياب السلطات الحاكمة فى دارفور وقلقها ، فلم يتمكنوا من التنقل بحرية فى أنحاء البلاد ، ومن ثم لم يتيسر لهم دراسة أحوال البلاد دراسة كافية .

أما محمد بن عمر التونسى ، فيختلف عن أولئك الرحالة الأوربيين . فهو تونسى الأب والجد ، مصرى الأم والتربية . أفادته عروبته فى الوصول إلى دارفور موطن كثير من القبائل العربية ، التى تربطه وإياها رابطة الأصل واللغة والدين ، وتربطه بأهلها من السودان — ومعظمهم وقتذاك من المسلمين — العروة الإسلامية

---

(١) Arkell, A.J.: Op. Cit., pp. 43-47.

الوثقى . صحيح أن محمد بن عمر التونسى لم يذهب إلى دارفور حباً فى الاستطلاع أو الدراسة أو الكشف الجغرافى ، ولكن ذهب للحاق بأبيه عمر التونسى الذى كان رحل إلى سنار ، ثم إلى دارفور ، ومن قبل رحل جده سليمان إلى سنار . وأفاد محمد بن عمر التونسى فى الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، علاقة أبيه وجده من قبل بهذه البلاد ، التى صاهراً أهلها ، وأضحى لمحمد بن عمر التونسى فيها إخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعلم والتجارة ، وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور وواداى . وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ، ومراكز سياسية مرموقة ، ومكانة دينية عظيمة عند ملوكها وفقهائها ، ومما لا شك فيه ، أن خبرة هؤلاء جميعاً تضيف كثيراً إلى ما اكتسبه محمد بن عمر التونسى نفسه من خبرة بأحوال هذه البلاد خلال إقامته بها . ومما يسر للتونسى التعرف على نواحى الحياة فى البلاد ، سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية ، التى لا يجهلها سوى القليل من أهل دارفور ، وأتيح للتونسى — بما ناله أبوه عمر من مكانة ، لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء وكبار التجار كذلك ، أن يكون من ذوى الحظوة لديهم جميعاً ؛ فحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة ، وتقاليد البلاط ، ونظم الحكم والإدارة والقضاء ، وشهد بنفسه بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة . وأتيح للتونسى أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة ، التى لا يسمح لأحد الدخول فيها إلا بإذن من السلطان ، وهى المناطق التى يسكنها « أعجام الفور » على حد قول التونسى . ولذا تتميز كتابات التونسى عما شهد فى هذه البلاد — رغم حداثته وقتذاك — بالدقة وقوة الملاحظة ، والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأمور . وبذا استطاع التونسى ، أن يدرس حياة الناس على اختلاف سلالاتهم وطبقاتهم ولغاتهم دراسة عملية دقيقة .

حاول بعض الباحثين التعرف على مراحل تاريخ دارفور القديم ولكن

جهودهم فى هذا الميدان ، لم تأت بنتائج ذات بال . ومن ثم فإننا لا نعرف عن تاريخ دارفور القديم شيئاً على وجه التحقيق،وربما تكشف الأبحاث الأثرية فى المستقبل عما غمض من تاريخ ذلك العصر .

ويظهر أن ثمة علاقة نشأت بين إقليمى كردفان ودارفور من ناحية وبين دولة كوش من ناحية أخرى وربما كان هذا هو السر فى أن الجماعات التى تتحدث اللغة النوبية فى كردفان ودارفور ، تحاول دائماً أن تستعيد ماضيها وعلاقتها بدولة كوش بتمسكها بأصلها القديم ، باعتبارهم « أهل كوش » ، أو « ناس كوش » أو « كاش » التى تقابل « كاج » . ومن هؤلاء جماعات « كاجدى » Kajiddi فى الطرف الجنوبى من جبل « كاجا » فى شمال كردفان . ويزعم هؤلاء الكاجدى أنهم أتوا من ناحية الشرق بقيادة ملكة ، وأن هذه الملكة مدفونة فى قبر قريب من جبل كابويجا Kaboija فى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل ميدوب ، وليس من المستبعد أن تكون الأسرة المالكة فى كوش ، أو فروع منها ، لجأت إلى الأقاليم الغربية من دولتهم المنهارة ، عقب سقوط عاصمتهم مروى فى منتصف القرن الرابع الميلادى على يد عيزانا ملك أكسوم ، وأن الجماعات التى تتحدث اللغة النوبية فى كردفان ودارفور ترجع أولى هجراتها إلى هذا العهد(١) .

وتذكر روايات أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة فى إقليم دارفور، ثم تلاهم التنجور ، ثم أسرة كيرا من الفور ، ومن هذا الاسم الأخير جاء إسم سلطنة دارفور .

أما الداجو فأصلهم غير معروف تماماً ، ويذكر الرحالة بارث ، أنهم كانوا فى زمنه (١٨٤٩ — ١٨٥٥ م) يطلقون على أنفسهم « ناس فرعون » ويرى أنهم جاءوا من إقليم فازوغلى جنوبى سنار(٢) ، على حين أن آركل — اعتماداً

---

(١) Arkell, A.J.: A History of the Sudan, pp. 174-178.

(٢) Barth, H.: Op. Cit., p. 426.

على ما ذكره براون — يرى أنهم من البربر الذين جاءوا من الشمال، من تونس[١] أما التونسى فيجعلهم أحد الشعوب الخمسة القديمة الرئيسية لسكان دارفور[٢] والراجح أن الداجو سلالة سودانية قديمة، غير أنهم مدينون فى قيام دولتهم هذه إلى مهاجرين أرقى منهم حضارة، وأنشأ أولئك المهاجرون طبقة حاكمة خضع لها الداجو. وليس من المعروف تماماً مصدر هذه الطبقة الحاكمة، ويغلب على الظن أنها جاءت من الشرق، أى من وادى النيل، فإن توزيع جماعات الداجو. وامتدادهم من الشرق إلى الغرب، قد يساعد على هذا الاستنتاج ذلك أن للداجو مواطن موزعة بين كردفان ودارفور وداصليح، وفى إقليم بحيرة تشاد[٣].

ويذكر كل من Arkell[٤]، Palmer[٥] أن الداجو هم « التاجوين » الذين ورد ذكرهم فى مؤلفات الإدريسى وابن سعيد والمقريزى وابن خلدون، وأنهم كانوا يقطنون فى المدة بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر، على مقربة من قبيلة الزغاوة وغربى الواحات المصرية، بين النوبة فى الشرق والكانم فى الغرب.

وأشار الإدريسى إلى مدينتين فى بلاد التاجوين أو الداجو : إحداهما تاجوه، وهى غير معروفة، والأخرى سمنة. وربما كانت هذه البلدة الأخيرة تقع فى تلال سيميات على بعد عشرين ميلاً شرقى مدينة الفاشر الحالية، حيث يعيش جماعة تعرف بهذا الإسم، ثم انتقلت جماعات سيميات إلى حدود واداى، وهناك عرفوا بإسم سيميار Simyar ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء. ويذكر

---

(١) Arkell, A.J.: Op. Cit., pp. 62-70.

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ١٢٧ .

(٣) MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 71-76.

(٤) Palmer, H.R.: Bornu, Sahara and Sudan, p. 212.

(٥) Arkell, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, pp. 62-70.

الإدريسى ، أن أولئك التاجوين — الداجو « مجوس لا يعتقدون شيئاً » (١) .

أما التنجور — الذين تذكر رويات أهل البلاد أنهم خلفوا الداجو فى حكم دارفور — فقد اختلفت الآراء حول أصلهم . فقيل إنهم من عرب بنى هلال من شمال إفريقيا(٢) ، ورأى آخر يقول إنهم من بقايا العباسيين الذين هاجروا إلى السودان بعد زوال دولتهم(٣) . ويذكر بارت أن التنجور من النوبيين الذين هاجروا من دنقلة إلى دارفور ومدوا نفوذهم على واداى ، وأرغموا الكانم أحياناً على دفع الجزية(٤) . ويرى آركل أن التنجور من التبو ، وأنهم هاجروا من إقليم تبستى تحت ضغط بنى هلال فى شمال إفريقيا ، ومن ثم حدث خلط فى النسب بين التنجور وبين بنى هلال(٥) . أما ماكيا كل ، فلا ينفى صلة التنجور ببنى هلال ، ولا يستبعد أن تكون بعض العناصر النوبية والعربية من بنى هلال ، هاجرت من بلاد النوبة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاد إلى دارفور ، حيث عرفوا بإسم التنجور . ومما يؤيد صلتهم ببلاد النوبة ، أن إسم تنجور فى اللغة النوبية معناها قوس ، وهو الإسم الذى عرفت به بلاد النوبة فى العصور القديمة « تاستى » أى بلاد القسى ثم أنه لا يزال هناك مكان جنوبى وادى حلفا الحالية يحمل إسم تنجور حتى الوقت الحاضر(٦) . وكيفما كان الطريق الذى سلكه التنجور إلى إقليم دارفور ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب أو النوبيين أو التبو ، فالمعروف أن أولئك التنجور ، لم تكن لهم — فى المائتى سنة الأخيرة — لغة سوى اللغة العربية(٧) ، ومهما قيل فى شأن اللغة التى كانوا يتحدثون بها من قبل ، أو أنهم نسوا اللغة القديمة ، وتمسكوا بالعربية ، فإن هذا

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٢ .
(٢) Slatin :Fire and Sword in the Sudan, p. 38.
(٣) C/f Balfour-Paul ; H.G. : Op. Cit., p. 10.
(٤) Barth, H. : Op. Cit., pp. 429-430.
(٥) Arkell, A.J. : S.N.R. : Vol. XXXII, pp. 207-218.
(٦) MacMichael, H.A. : Op. Cit. : p. 66.
(٧) Balfour - Paul, H.G. : Op. Cit., p. 10.

لا ينفى — على الأقل — صلتهم بالعناصر العربية ، التى كانت فيما يبدو — تمثل طبقة حاكمة تعتمد على قاعدة من العناصر غير العربية ، قد تكون من النوبة أو من البدايات .

ومعظم الآثار التى عثر عليها فى مدينتى أورى وعين فرح شمال دارفور تنسب إلى التنجور ، ويدل هذا على أن التنجور بسطوا نفوذهم على شمال دارفور ، ولم يمتد إلى جنوبها . ومن المحتمل أن مملكتى الداجو والتنجور قامتا جنباً إلى جنب ، حتى القرن السادس عشر الميلادى . وتدل بقايا آثار المساجد والقصور الملكية المبنية بالطوب الأحمر على أن الإسلام امتد إلى دارفور على عهد التنجور . غير أن سلطان التنجور لم يستمر على ما تغلبوا عليه فى دارفور طويلاً . وربما كان مرجع ذلك إلى أن ضغطاً وقع عليهم من الشمال ، أو إلى أنهم توسعوا فى بسط نفوذهم ، حتى وصلوا غرباً إلى واداى ، وبذا تخلخل سلطانهم على دارفور بعد مضى قرنين من مقدمهم إليها[٢] .

وعلى الرغم من أن الإسلام أخذ يشق طريقه إلى هذه البلاد ، منذ حوالى القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل ، حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب ، فإن الإسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد إلا حين تولى سليمان سولونج من أسرة كيرا عرش سلطنة دارفور حوالى عام ١٦٤٠م . أما كيف انتقل المُلك من التنجور إلى أسرة كيرا من الفور ، فهذا موضوع اختلفت فيه الآراء كذلك .

يذكر التونسى أن الفور — سكان جبل مرة الأصليين ينقسمون إلى ثلاث شعب هى : الكنجارة والتموركة والكرا كريت[٣] . لكن الكنجارة

---

(١) Ibid : Op. Cit., p. 11:

(٢) Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 183.

(٣) التونسى : نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

يمتازون على غيرهم من الفور بوجود الدماء العربية فى عروقهم[١] . وتذكر روايات أهل البلاد أنه وفد على بلاد دارفور قبل القرن السابع عشر الميلادى ، جماعة من عرب بنى هلال بقيادة أحمد المعقور من نسل أبى زيد الهلالى ، وصاهروا الكنجارة ، ونشأ فى الكنجارة أسرة تسمى أسرة كيرا ، استطاعت بقيادة زعيمها سليمان سولونج أن تؤسس سلطنة دارفور[٢] . وثم رواية تقول إن سليمان سولونج عربى من قبيلة بنى هلال ، وتزوج أميرة من الفور[٣] . ورواية ثالثة تقول إنه ابن أحمد المعقور من بنى هلال ؛ أو من سلالته[٤] . ورواية رابعة تقول ، إنه سبق حكم سليمان هذا أربعة عشر سلطاناً يحملون أسماء عربية[٥] . ومما زاد هذه الروايات اضطراباً ، إدعاء كل من الكنجارة والتنجور الانتساب إلى بنى هلال[٦] .

والراجح أن الكنجارة ، — وهم خليط من العرب والفور — صاهروا التنجور ، ونشأ عن هذه المصاهرة ، ظهور أسرة كيرا ، وهى الأسرة التى انتزعت حكم دارفور من التنجور . ويبدو أن السلطان دالى أول سلاطين هذه الأسرة ، ثم خلفه ابنه كورو ، ثم سليمان سولونج . وظلت هذه الأسرة تحكم دارفور حتى نهاية حكم على دينار عام ١٩١٦ .

السلطان سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠م) :

يغلب على الظن أن سليمان كان من أب أجنبى وأم من كيرا وعلى كل حال فان لقب سولونج — الذى عرف به سليمان — معناه فى لغة الفور « العربى »

---

(١) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 91.

(٢) Balfour-Paul, H.G.: Op. Cit., p. 92.

(٣) شقيرة : (نفس المصدر ٢ ، ص ١١٢) .

(٤) Nachtigal, G.: Op. Cit.: Vol. III, pp. 256-360.

(٥) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 92 n.

أو من يتكلم العربيـة أو من يدين بالإسلام دين العرب[١] . وفى هذا دليل على اتصال سليمان بالنسب العربى .

نشأت أسرة كيرا هذه فى ترة على مقربة من جبل مرة بأواسط دارفور . وفى هذه المنطقة ، عثر على بقايا قصور حصينة ترجع إلى عهد أولئك السلاطين الثلاثة الذين بدأ بهم بيت كيرا ، وإلى الشرق من ترة ، توجد بقايا قصر آخر ينسب إلى زعيم اسمه تونسام[٢] . وتذكر روايات الفور أن تونسام هذا كان أخاً لسليمان ، ويبـدو أنه كان يريد السلطنة لنفسه ، فحاربه سليمان سولونج وهزمه وطرده من دارفور . فلجأ هذا الزعيم الطريد إلى كردفان ، وهناك أسس سلطنة المسبعات[٣] . ويقال إن المسبعات فى لغة الفور معناها « الناس الذين ذهبوا إلى الشرق »[٤] .

اتخذ سليمان سولونج بلدة نامى فى إقليم ترة عاصمة لدولته ومن هذه المنطقة قام سليمان بعدة حملات حربية على ما جاوره من أقاليم . واستطاع سليمان بعد معارك بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين ، أن يحقق للبلاد وحدتها ، وأن تخضع لسلطانه جماعات البرقد والزغاوة والبرتى والبيقو وبعض المساليط ، كما قضى على محاولة قام بها التنجور لاسترداد ملـكهم المسلوب . ثم تفرغ سليمان لبناء سلطنته على أسس سلمية باستئناف حركة نشر الإسلام ، التى يحتمل أن يكون أصابها الركود أثناء فترة الحروب الأهلية[٥] .

وفيما يلى قائمة بأسماء سلاطين دارفور . من سليمان سولونج فصاعداً :

١) سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠ م) .

---

(١) Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 185, MacMichael, H.A., Op. Cit., p. 92.

(٢) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 93.

(٣) Ibid : Op. Cit., K/f. Arkell, A.G. : S.N.R., Vol. XXXII, Part I, p. 46.

(٤) Ibid : Op. Cit., p. 46.

(٥) Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 184-185.

٢) موسى بن سليمان سولونج (١٦٧٠ — ١٦٨٢ م) .

٣) أحمد بكر بن موسى (١٦٨٢ — ١٧٢٢ م) .

٤) محمد دورا بن أحمد بكر (١٧٢٢ — ١٧٣٢ م) .

٥) عمر ليل بن محمد دورا (١٧٣٢ — ١٧٣٩ م) .

٦) أبو القاسم بن أحمد بكر (١٧٣٩ — ١٧٥٢ م) .

٧) محمد تيراب بن أحمد بكر (١٧٥٢ — ١٧٨٧ م) .

٨) عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) .

٩) محمد فضل بن عبد الرحمن الرشيد (١٨٠٢ — ١٨٣٩ م) .

١٠) محمد حسين بن محمد فضل (١٨٣٩ — ١٨٧٤ م) .

١١) إبراهيم بن محمد حسين (١٨٧٤ — ١٨٧٥ م) .

دارفور تحت حكم الادارة المصرية
فى السودان (١٨٧٥ — ١٨٨٣ م) .

السلطان موسى : (١٦٧٠ — ١٦٨٢ م) لم تذكر عنه روايات الفور شيئاً يستحق الاهتمام . ويبدو أن هذا السلطان كان ميالاً إلى ، على عكس أبيه سليمان، غير أنه اضطر مع هذا إلى أن يحارب جماعات القمر والمسبعات(١) .

السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ — ١٧٢٢ م) حكم هذا السلطان بلاد دارفور أربعين عاماً ، وأحبته رعيته لما اشتهر عنه من الحزم ، وإليه يرجع الفضل فى تعميم الإسلام فى بلاد دارفور . ويبدو أن الإسلام فى عهد سلفه لم يتعد الأسر المالكة أو الأسر الكبيرة ، التى اتصلت بالنسب العربى . ولذلك اعتنى

---

(١) Ibid : Op. Cit., p. 185.;

obeikandi.com

هذا السلطان ببناء المساجد والمدارس ، واستقدم عدداً من المشايخ من مختلف البلاد الإسلامية ، ومنحهم أراض وأعفاهم من الضرائب . عاش السلطان أحمد بكر مدة فى بلدة قرلى فى دار كرنة ، ثم تنقل ببلاطه وحاشيته إلى بلدة مرة فى دارفيا ، ثم إلى أبوعسل فى منطقة ترة . ولم يخل حكم هذا السلطان من حروب ، أولها حرب دامت سبع سنوات لإخضاع جماعات القمر ، واستعان أحمد بكر بأمراء المماليك فى مصر لإمداده بالأسلحة لدفع إغارات أهل وادای بقيادة ملكهم عاروسی على حدود دولته ، فأحرز عليهم نصراً عند كبكابية(١) . ويبدو أن إسم كبكابية مستمد من إسم هذه المعركة . وذلك أن لفظ كبكابية — فى لغة الفور — مركب من كلمتين كبي—كابية، ومعناها « ألقوا دروعهم هاربين »(٢) .

محمد دورا (١٧٢٢ — ١٧٣٢ م) ورث هذا السلطان عن أبيه أحمد بكر شجاعته وحزمه ، لكنه أضاف إلى هاتين الصفتين صلة القسوة والوحشية ، بدليل قتله كثيراً من أخوته(٣)، وشنه الحرب على إبنه موسى عنجريب . وتوفى محمد دورا هذا بعد مرض طويل بداء البرص(٤) .

عمر ليل (١٧٣٢ — ١٧٣٩ م) خلف أباه السلطان محمد دورا على عرش دارفور. ويقول شقير، إنه من أعدل سلاطين دارفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة(٥) . ونقل عمر فاشرة إلى بلدة كوجورما على بعد عشرين ميلاً غربى كبكابية . ويذكر لامبين "Lampen" أنه لقب بعمر ليل ، أى عمر الحمار لأنه كان قاسياً ، فضلاً عن أطماعه الحربية التوسعية فى إقليم وادای

(١) Nachtigal, G.: Op. Cit., p. 367.
C/f El Tunsi: Voyage au Ouday, pp. 77-82.

(٢) Lampen G.D.: Op. Cit., p. 185.

(٣) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

(٤) Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 185.

(٥) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

إلى ضجر أهل دارفور من حكمه ، ومات السلطان عمر أسيراً فى وادای(١) .

أبو القاسم (١٧٣٩ — ١٧٥٢ م) هو ابن السلطان أحمد بكر . خلف ابن أخيه عمر ليل فى حكم دارفور ، وبدأ عهده بمحاباة طبقة الأرقاء دون الأحرار ، وامتلأت وظائف الإدارة والحكم بالعبيد ، فكره النـاس حكمه . وعزم على الانتقام لسلفه عمر ليل من أهل وادای. وأدى اختفاؤه وإشاعة قتله فى المعركة إلى تنصيب أخيه محمد تيراب عرش السلطنة .

ولما ظهر أبو القـاسم ، بعد شفائه على أيدى بعض الأعراب الذين آووه ، أبى كبار رجال الدولة أن يتنازل تيراب لأخيه عن السلطنة ، وما زالوا به حتى وافق على خنقه(٢) .

محمد تيراب (١٧٥٢ — ١٧٥٧ م) برهن السلطان محمد تيراب على أنه سلطان ممتاز ، فاستحق من أجل ذلك الاحترام فى الداخل والخارج . غير أنه أثار غضب بعض رؤساء القبائل فى دولته لميله إلى جماعات الزغاوق التى كانت منها أمه، فعين خاله سلطـاناً على فرع من فروع الزغاوة ، كما عين عـدداً من أفراد هذه القبيلة فى المناصب العليا فى دولته . وتنقل السلطان تيراب بفاشرة بين قرلى وكوجورما وشوبا ، وكلها تقع بالقرب من مدينة كبكابية . وربما كان الدافع له على ذلك ، مراقبة حركات أهل وادای بالقرب من الحـدود الغربية لدولته . ثم نقل السلطان تيراب فاشرة مرة رابعة إلى الريل جنوب شرقى دارفور ، وذلك على أثر ثورة قامت بها جماعات البرقد ضده . ويرجع سبب هذه الثورة إلى ماشاع بين البرقد ، من أن السلطان تيراب يقوم ببيع بناتهم اللائى كان مفروضاً إلحاقهن بحريم السلطان وجواريه وخدمه(٣) . وسواء أكان انتقال السلطـان بفاشرة

(١) Lampen, G.D.: Op. Cit., 00. 185-186.

(٢) Nachtigal, G.: Op. Cit., 00. 373-374.

(٣) أنظر التونسى : تشحيذ الأذهان ص ٦٩ ، ٧٠ .

Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 186.

إلى الناحية الجنوبية الشرقية من دولته بسبب ضغط هذه الثورة عليه أو الاستعداد لحرب الزيقات والمسبعات ، فالمعروف أنه قام بهذه الغزوات على هاتين الجماعتين، بعد القضاء على ثورة البرقد .

أما عن حرب المسبعات ، فإن التونسى شرح فى كتابه علاقة سلاطين دارفور بسلاطين المسبعات شرحاً وافياً ، وتعرض لتفاصيل هذه الحرب أسبابها ونتائجها . فيذكر التونسى أن سليمان سولونج الجد الأول لسلاطين دارفور ، كان له أخ اسمه المسبع[1] . واتفق الأخوان على تقسيم إقليمى دارفور وكردفان فيما بينهما . فكانت دارفور من نصيب سليمان ، وكردفان من نصيب المسبع . وتعاهد الأخوان أن لا يخون أحدهما الآخر . وظل الأمر على هذه الحال فى أعقابهما من بعدهما . ولما تولى السلطان تيراب عرش دارفور ، كان يلى كردفان من نسل مسبع السلطان هاشم المسبعاوى . فقام السلطان هاشم بشن الإغارات على أطراف سلطنة دارفور أملاً فى غزوها . فبعث السلطان تيراب إلى قريبه السلطان هاشم ، رسالة جاء فيها : « بعد السلام : يا ابن عمى ، أرسلت سراياك على أطراف بلادى ، وأنت تعلم ما بيننا من المودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع أنك تعلم أن الذين أخذت أموالهم مسلمون ، والذين قتلوا موحدون ، وهذا الفعل لم يبيحه (كذا) أحد ، ولا يفعله عاقل ، فإذا وصلك كتابى هذا ، فانته ، وإلا سيلقى الباغى مصرعه والسلام » . غير أن السلطان هاشم لم يستجب لهذا النداء ، وواصل عدوانه على دارفور . فاستعد السلطان تيراب لملاقاته بجيش كثيف ، وعهد إلى ابنه إسحاق أن يقوم مقامه فى حكم دارفور أثناء غيابه عنها . وسار تيراب بجيشه قاصداً كردفان[2] .

---

(١) لفظ المسبع هنا لقب لتوتسام أخى سليمان سولونج ، ومعناها فى لغة الفور : الذى اتجه نحو الشرق .

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان ، ص ٧٨ — ٨٦ .

أما السلطان هاشم فإنه لما علم بقدوم تيراب بجيش لا قبل له بمواجهته فر بحاشيته وأسرته إلى ملك سنار بعد أن فارقه أكثر رجاله(١) . وأخذ السلطان تيراب يطارد السلطان هاشم حتى وصل إلى قرب موضع أم درمان الحالية . وهناك التقى بجيش العبد اللاب من قبل ملك سنار . ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العبد اللاب وفرارهم وظفر تيراب بنحاسهم المعروف بالمنصورة(٢) . وكان لاستيلاء الفور على نحاس العبد اللاب — حلفاء الفرنج بسنار — مغزى سياسى وحربى عظيم الأثر . واحتفظ سلاطين الفور بهذا النحاس من بعد ، وغدا تجليد هذا النحاس والاحتفال به سنوياً ، عيداً من أعياد الفور ، القومية(٣) .

أما السلطان تيراب ، فإنه عزم على الزحف إلى سنار ، لكنه لم يستطع عبور النيل ، ومن ثم ظل فى أم درمان مدة يدبر خلالها الوسائل لاجتياز النهور ، فلم يفلح ، فسئمت نفوس رجاله الانتظار ، وسألوه العودة إلى بلادهم ، فلم يستجب لندائهم ، وأقسم ألا يرجع إلى دارفور إلا برأس هاشم(٤) . وهنا أخذ بعض رجال دولته يدبرون المؤامرات للتخلص منه . واشترك فى هذه المؤامرات والد إحدى زوجاته ويدعى على ورد برقو . غير أن خبر هذه المؤامرة وصل إلى تيراب ، فتخلص من المتآمرين(٥) . وظل السلطان تيراب مدة فى أم درمان ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فحمله رجاله وعادوا به إلى دارفور ، ولكنه مات فى بارة ، فحنطوه وحملوه إلى جبل مرة ودفن فى مقابر السلاطين بتره .

وعلى الرغم من أن السلطان تيراب كان رجلاً متنوراً ومثقفاً ، وأنه كان دائب السعى إلى استيراد الكتب من مصر وتونس ، إلا أنه أخذ عليه الميل إلى

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٨٠ .
(٢) شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .
(٣) التونسى : نفس المصدر ١٥٦ — ١٥٩ .
(٤) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
(٥) التونسى : نفس المصدر ، ٨١ — ٨٣ .

النساء والخمور ، فضلاً عن حب الحروب ذات المجهود الضــائع ، وعدم المبالاة بشعور قومه وكرامتهم . من ذلك ما يروى عن استهتار أولاده بشعور الناس . فقد كان الواحد منهم لا يسافر إلا راكباً على ظهور الرجال بدلاً من الدواب ، حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم . ولما تقدم الناس بالشكاوى إلى تيراب ، لم يلتفت إليها وقال « إنى لأعجب كيف أن رعيتى لا تصبر على أولادى ، فإذا أتوا أقل شىء لا يرضيهم شكوهم إلى . فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم إلى الله . وربما كان هذا الضيق هو الذى جعل أهل دارفور يترددون فى إقامة ابنه اسحاق فى السلطنة من بعده ، وذلك على الرغم من أنه أوصى بأن يؤول إلى إسحاق هذا ملك دارفور من بعده ولقبه بالخليفة . ولما توفى تيراب[1] ، كان بدارفور وقتذاك ثلاثة من أبناء السلطان أحمد بكر . ورأى كل منهم أنه أحق من غيره ومن إسحاق بملك دارفور . واستغل هذه الحالة خصى يدعى محمد كرا ليمكن لنفسه ، وكان من المقربين فى البلاط السلطانى . وكانت أولى خطواته فى هــذا السبيل أنه ساعد على تفضيل أصغر أبناء السلطان أحمد بكر ، وهو عبد الرحمن الرشيد[2] . فلما نجحت هذه الخطوة ، زحف هذا الخصى الماهر نحو البلاد التى أعتصم فيها إسحاق وهزمه تبلدية وتلدوا ، وطارده إلى شمال دارفور ، ثم لحقت بإسحاق الهزيمة النهائية غربى كبكابية . بذا صفا الجو للسلطان الجديد[3] .

ويعتــبر عصر عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) صفحة جديدة فى تاريخ دارفور . إذ شجع هذا السلطان الجلابة الأجانب (التجار) على دخول دارفور ، فازدهرت التجارة فى عهده ، ونشأت عدة مدن تجارية تضم وكالات

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٧٩ — ٨٠ .
عرف السلطان عبد الرحمن الرشيد باسم اليتيم كذلك .
(٢) أنظر التونسى : ص ٩٢ ، شقير : نفس المصدر ، ص ١٢١ .
(٣) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ — ٩٢ .

للتجار(١) كما نشطت تجـارة القوافل مع مصر عن طريق درب الأربعين(٢) . ثم أن عبد الرحمن الرشيد شجع الفقهاء وأغدق عليهم . وكان عمر التونسى — أبو الرحالة العربى المشهور محمد بن عمر التونسى — ممن ظفروا بعطف السلطان ورعايته ، فمنحه إقطاعاً كبيراً فى منطقة أبى الجدول(٣) . وفى عهده زار الرحالة الإنجليزى براون دارفور ، ثم زارها فى عهد سلفه السلطان محمد فضل ، الرحالة العربى محمـد بن عمر التونسى ، كما سبق أن ذكرنا . وسجل هذان الرجلان ملاحظاتهما عن أحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقتذاك . ولذا كان عهد عبد الرحمن الرشيد أوضح عهود سلاطين دارفور .

جعل السلطان عبد الرحمن الرشـيد فاشرة فى تندلتى(٤) ، وظلت تندلتى هذه — التى اشتهرت فيما بعد باسم الفاشر — عاصمة السلطنة فى عهده وعهد خلفه لتـكون قريبة من إقليم كردفان وهو الإقليم الذى أصبح مجالاً لتوسع سلطنة دارفور وامتدادها شرقاً .

وأهم حادثة سياسية فى عهد عبد الرحمن الرشيد ، حربه ضد السلطان هاشم فى كردفان ، وهو السلطـان الذى كاد أن يمحو سلطنـة دارفور بما أحرزه من انتصارات على جيوشها ، لولا مهارة محمد كرا الذى جعله السلطان نائباً عنه فى حكم كردفان بعد انتصاره على السلطان هاشم(٥) .

ويبدو أن السلطان عبد الرحيم الرشيد كان شديد الحرص على استمرار سير القوافل التجارية بين مصر ودارفور . غير أن بعض أمراء المماليك فى مصر دأبوا على التعرض

---

(١) Browne, W.G.: Op. Cit., pp. 234-236.

(٢) التونسى : نفس المصدر ص ٣٨ — ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٦٠ ، ١٠٧ .

(٥) التونسى : نفس المصدر ص ٢١ — ١٢٢ .

لهذه القوافل وتعطيل سيرها . ولذا فإن عبد الرحمن الرشيد بادر بتهنئة نابليون عقب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وانتصاره على أمراء المماليك ، وذلك حرصاً من عبد الرحمن الرشيد على استمرار سير هذه القوافل ، ولاسيما بعد أن أعلن نابليون احترامه للدين الإسلامى . فرد عليه نابليون بكتاب يطمئنه فيه على استمرار سير القوافل ويطلب منه إرسال ألفى عبد من العبيد الأشداء(١) .

وعلى الرغم من السلطان عبد الرحمن الرشيد كان موتورا من سلوك بعض أمراء المماليك ، فإنه رحب بمقدم أحد أولئك الأمراء واسمه زوانا كاشف ، وذلك حين هرب هذا المملوك من وجه الفرنسيين ، وطلب من السلطان حمايته . فمنحه السلطان إقطاعا ، وسمح له ببناء قصر إلى جوار قصره . غير أن زوانا كاشف هذا فكر فى إقامة نفسه سلطاناً على دارفور ، وجمع حوله الأنصار ، واستعد لحرب عبد الرحمن الرشيدى . لكن السلطان تمكن من القبض عليه وقتله قبل أن يشرع هذا المملوك فى تنفيذ ما دبر من خيانة وغدر(٢) .

وفى هذا العصر لمع نجم شخصية فوراوية ، لم تلبث أن احتلت مكانا بارزاً فى تاريخ دارفور على عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد وابنه السلطان محمد فضل من بعده . وإسم هذه الشخصية محمد كرا(٣) .

التحق محمد كرا هذا — أول الأمر — بحرس السلطان تيراب ، ثم غدا مشرفاً على تربية أولاده فى القصر السلطانى(٤) . ويقال إنه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده(٥) . فألحقه السلطان تيراب بخدمة أحد وزرائه ،

---

(١) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) التونسى : نفس المصدر ، ص ١١١ — ١٩٥ .
(٣) لفظ كرا معناه فى اللغة الفوراوية « الطويل » التونسى ، ص ٥٩ — ٦٠ .
(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ .
(٥) المصدر السابق ٧٥ .

obeikandl.com

فأظهر محمد كرا كفاية ممتازة ، وتمـكن بمهارته أن يساعد السلطان عبد الرحمن الرشيد فى الوصول إلى عرش دارفور بعد وفاة أخيه السلطان تيراب[1] . فعينه والياً على إقليم كردفان بعـد الاستيلاء على هذا الإقليم من هاشم المسبعاوى . ولقد اتهم محمد كرا أثناء ولايته على كردفان بعدم الولاء للسلطان عبد الرحمن الرشيد ، والسعى لانتزاع السلطنة منه . فأرسل السـلطان حملة إلى كردفان لإحضاره حياً أو ميتاً . ولما علم محمد كرا بما أمر به السلطان عبد الرحمن ، أحضر سلاسل ووضعها فى يديه ورجليه وطلب إلى رجال الحملة أن يقودوه مقيداً إلى تندلتى الفاشر حيث يقيم السلطان . وبذا اقتنع السلطان عبد الرحمن بولاء محمد كرا له فرفعه وقربه ، وعينه فى منصب الأب شيخ وهو أعظم المناصب قدراً فى دارفور ، بعد منصب السلطان[2]. وكان من عادة الخصـيان فى دارفور ، أن يتزوجوا من أرامل ذوات أولاد ، فيتبنى أولئك الخصيان هؤلاء الأولاد ، لينتفى عنهم مذلة الخصاء ولو ظاهراً . ولم يشذ الأب شيخ محمد كرا عن هذه القاعدة ، فتزوج من إمرأة لها ابن إسمه شيلفوت (ومعناه فى لغة الفور « خذ واذهب ») وكان شيلفوت هذا من الفرسان المعدودين ، فاعتمد عليه الأب شيخ محمد كرا اعتماداً كبيراً فى توطيد سلطانه[3] .

توفى السلطان عبد الرحمن الرشيد سنة ١٨٠٢ م تاركاً إبنا صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وإسمه محمد فضل . وقد نجح الأب شيخ محمد كرا مرة ثانية فى إقامة محمد فضل مقام السلطان المتوفى ، وذلك على الرغم من كثرة عدد المطالبين بعرش دارفور وقتذاك . وأعقب الأب شـيخ هذا العمل بالقبض على المطالبين بعرش السلطنة وأنصارهم . ويقال إن عدد من قبض عليهم وقتلهم بلغ نحو ستين رجلاً . ولم يبق من أولئك المطالبين بعرش دارفور وأنصارهم سوى

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ — ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ — ٢٣٩ .

عدد قليل ، رأى الأب شيخ أن يسجنهم فى جبل مرة[١] . وبذا أصبح الأب شيخ محمد كرا الحاكم المطلق فى دارفور ، وطغى نفوذه على نفوذ السلطان وظل الأب شيخ على هذه الحال حتى دلالات السلطان محمد فضل يفكر فى التخلص من وصايته عليه . فاعتصم الأب شيخ فى ناحية من نواحى تندلتى — الفاشر . ولم يلبث أن صار سجيناً فى تلك الناحية ، ثم منع السلطان عنه الماء ، وشن عليه هجوماً انتهى بقتله وقتل ربيبة شيلفوت كذلك[٢] .

أما السلطان محمد فضل (١٨٠٢ — ١٨٣٩م) فإنه استفتح عهده بتحرير قبيلة البيقو ، التى كانت أمه منها ، وحرم أخذ الرقيق وبيعه من هذه القبيلة . بيد أن السلطان محمد فضل اتصف من ناحية أخرى بالمغالاة فى معظم نواحى حياته وأخلاقه ، من حيث الانغماس فى اللهو ، والتطرف فى معاداة الناس . وازدادت هذه الصفات عمقاً فى نفسه كلما تقدمت به الأيام ، حتى صار أواخر عهده رجلاً قاسياً محباً للانتقام . وعرف عنه التطرف فى معاملة القبائل العربية بالقسوة ، وكاد أن يقضى على بنى هلبة على العريقات والرزيقات كذلك[٣] .

وفى عهده استؤنفت الحرب بين دارفور ووادای ، وانتهت هذه الحرب بصلح اشترك محمد بن عمر التونسى فى المفاوضات التى أدت إلى عقده .

أما فى الناحية الشرقية من سلطنة دارفور ، وتقصد بها إقليم كردفان ، فقد جرت فيها المقادير على عكس ما يشتهى السلطان محمد فضل . إذ ارتبط مصير هذه الولاية بمصير بقية أقاليم السودان الأخرى التى فتحها إسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١م . فلم تكد حملة إسماعيل تغادر دنقلة فى طريقها إلى بربر

---

(١) التونسى : المصدر نفسه ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ — ٦٨ .

(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 187-188.

ثم إلى سنار عاصمة مملكة الفونج ، حتى قام قسم من الحملة الرئيسية بقيادة محمد بك الدفتردار صهر محمد على — لفتح كردفان . ولما علم المقدوم مسلم ، والى كردفان من قبل السلطان محمد فضل بأمر هذه الحملة ، عقد العزم على مقاومتها ، معتمداً فى ذلك على خيالة كردفان ومشاة دارفور . وتبادل الدفتردار والمقدوم مسلم الرسائل . فالأول يطالب بالتسليم صلحاً ، على حين أن الثانى يصر على المقاومة مهما كلفه الأمر . وبذا لم يكن بد من الحرب والقتال . والتقى الفريقان بالقرب من باره ، حيث نشبت معركة بين قوتين غير متكافئتين من حيث نوع الأسلحة . فالقوات المصرية كانت تعتمد على الأسلحة النارية التى لم تكن معروفة فى السودان حتى ذلك الحين . وبذا حلت بالمقدوم مسلم الهزيمة(١) .

وحاول السلطان محمد فضل استرداد كردفان . فلم يقدر له النجاح . وبذا غدا همه محصوراً وقتذاك فى الدفاع عن دارفور ، ضد أى قوة يحتمل مجيئها من ناحية الشرق ، ولا سيما بعد خروج أخيه الأمير أبى مدين عليه وهروبه إلى مصر(٢) .

حاول هذا الأمير إقناع ولاة الأمور فى مصر بفتح دارفور وتعيينه سلطاناً عليها ، على أن يكون خاضعاً للحكومة المصرية ، ويؤدى إليها الخراج سنوياً . ولكن رؤى إرجاع الفتح مدة تستكمل خلال أعمال الاستطلاع والاستعداد . وإذا كانت حوادث الشرق أخرت التفكير فى فتح دارفور وقتذاك ، فان هذا لم يمنع محمد على من استعمال وسائل التهديد والترغيب لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التى تديرها مصر . فبعث برسالة فى عام ١٨٣٠م إلى السلطان محمد فضل ، يدعوه فيها إلى التسليم . فأجابه السلطان برسالة فيها تصميم على الدفاع عن بلاده . مهما كان الثمن . وبذا نام مشروع فتح دارفور مؤقتاً حتى يحين الوقت المناسب(٣) .

---

(١) شقير : نفس المصدر جـ ٣ ص ١٣٠ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

توفى السلطان محمد فضل عام ١٨٣٩م ، فخلفه على عرش دارفور ابنه السلطان محمد حسين (١٨٣٩ — ١٨٧٤م) وليس لدينا من سيرة هذا السلطان مايستحق الاهتمام سوى شدة حرصه على المحافظة على استقلال بلاده . فيقال أنه أنشأ جيشاً قوياً سلحه — لأول مرة فى تاريخ دارفور — بالأسلحة النارية ، بدلاً من السيوف والحراب الدرق والسكاكين والنشاب(١) .

وثم حادثة مشهورة وقعت فى عهد السلطان محمد حسين ، وهى الحادثة المعروفة بواقعة القرطاس . فيقال إن السلطان محمد حسين ساءه اعتداء عربان المعاليا على قافلة قادمة من مصر ، فاستغل السلطان ماعرف من عداء قديم بين عربان المعاليا وعربان حمر ، وأوعز إلى شيخ قبيلة حمر بشن الحرب على المعاليا ، وأباح لهم دماؤهم وأموالهم . ونشبت بين القبيلتين معركة شديدة ، انتهت بهزيمة المعاليا ، وسميت هذه الواقعة بالقرطاس بسبب امتلاء الصحراء بقراطيس السكر والأنسجة التى كان عربان المعاليا نهبوها من تجار القافلة(٢) .

أما عن علاقة السلطان محمد حسين بمصر فإنها كانت على كل حال — طيبة ، ولو أنه كان دائم الشك فى نوايا حكامها . واكتفى السلطان بتبادل الهدايا مع الخديو سعيد ثم اسماعيل .

أما خلفه السلطان ابراهيم (١٨٧٤ — ١٨٧٥م) فانه كان آخر سلاطين دارفور . ولم يتعد حكمه القصير سنة وسبعة أشهر ، انتهى بعدها عصر سلاطين دارفور . وغدت هذه البلاد جزءاً من الأقاليم السودانية الخاضعة لمصر . وقدر لرجل لم يعهد إليه بفتح دارفور القيام بهذا العمل . أما هذا الرجل فهو الزبير رحمت العباس . تفصيل ذلك أن الخديو إسماعيل كان قد أصدر قراراً بتعيين

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

الزبير حاكماً على إقليم بحر الغزال . ولكى يبرهن الزبير على ولائه للخديو ، بعد ما أشيع عنه عكس ذلك ، فإنه اعتزم السفر من بحر الغزال إلى الخرطوم لإعلان هذا الولاء ، والبحث مع حكمدار السودان — إسماعيل أيوب — فيما تتطلبه إدارة هذا الإقليم من وسائل تكفل توطيد سلطان الحكومة فيه . غير أن الزبير بلغه — قبل أن يغادر بحر الغزال إلى الخرطوم — أن عرب الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود مديريته وقطعوا الطريق بين بحر الغزال وبين دارفور . فرأى الزبير أن يقوم أولاً بتأديب أولئك العربان ، ثم يواصل سيره إلى الخرطوم عن طريق كردفان وأعد الزبير لهذا الغرض حملة تقدم بها شمالاً إلى مواطن الرزيقات.

ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الزبير ودخوله شكا . ثم هرب إثنان من مشايخ الرزيقات إلى دارفور ، وطلبا من السلطان ابراهيم حمايتهما من الزبير وجنوده ، وعاهداه على الخضوع والطاعة بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم عن سلطنة دارفور من ٣٠ سنة مضت . ومن الطبيعى أن يرحب السلطان بحماية هذين الشيخين ، لما يترتب على حمايتهما من استرداد مافقدته سلطنة دارفور من أقاليم (١) .

حاول الزبير إقناع السلطان ابراهيم بعدم الاهتمام بأمر هذين الشيخين للحفاظ على حسن العلاقات والمودة التى ربطت بين والده وبين الحكومة المصرية . وشرح له كيف أفسد الرزيقات الطريق الذى يربط بحر الغزال ببقية أقاليم السودان عن طريق دارفور . وختم الزبير رسالته إلى السلطان ابراهيم بأن هذين الشيخين فتنة ، ولا يليق بمثله أن يستمع إليهما . وظل الزبير يراسل السلطان عساه يقبل النصح ، ولكن السلطان لم يوافق على تسليمهما . واستعد الطرفان للحرب ، وأدى انتصار الزبير على تجريده للسلطان قرب شكا ، إلى تقدم قوات

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٨٦ — ٨٧ .

الزبير شمالا ، مكتسحاً فى طريقه كل أثر للمقاومة من جانب السلطان ، ولما رأى السلطان ابراهيم ، عدم جدوى هذه التجريدات التى بعث بها ضد الزبير ، قام بنفسه على رأس حملة أخيرة لمباغتة الزبير فى بارة . بيد أن جيش السلطان لم يستطع اقتحام حصون بارة التى اعتصم بها الزبير ، ومن ثم تراجع عنهـا ، فتعقبه الزبير وأدركه عند بلدة منواشى ، حيث دارت الدائرة على جيوش السلطان وانتهى الأمر بقلته ، وضياع ملكه سنة ١٨٧٥[١] .

ظلت دافور تحت الإدارة المصرية فى السودان من سنة ١٨٧٥م وهى السنة التى دخل فيها الزبير دارفور حتى سنة ١٨٨٣ وهى السنة التى امتد فيها نفوذ المهدية إلى دارفور . ولم يخل عهد الحكم المصرى فى دافور من محاولات ، من جانب بعض الأمراء الفوراويين لاسترداد ملكهم . كما لم يخل حكم المهدية فى دافور من حركات بعض الأمراء لتحقيق هذا الغرض كذلك . واستطاع أحد أولئك الأمراء ، وهو على دينار ، أن يظفر بحكم دارفور بعد استرداد السودان سنة ١٨٩٦ ، بشرط دفع الضرائب المقررة لحكومة السودان . وتلقب على دينار بلقب سلطان ، وظل على حكم دارفور حتى سنة ١٩١٦ . وفى هـذه السنة جردت عليه حكومة السودان حملة انهت حكم سلالة سلاطين دارفور ، وأمست دارفور مديرية من مديريات السودان الحديث .

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ، ص ٦٨ — ٨٣ .

نظام الحكم فى سلطنة دارفور

جرى حكم دارفور على أساس الحكم الملكى المطلق . فالسلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، وكلمته نافذة فى رقاب الناس وأموالهم ، ولاراد لحكمه فيهم إلاعن طريق الشفاعة . ويصل السلطان إلى العرش عن طريق الوراثة . ويتم اختياره من بين أفراد البيت المالك فى دارفور بواسطة مجلس خاص يوم وفاة السلطان الراحل . ويظل السلطان الجديد مدة سبعة أيام لايباشر فيها أى عمل رسمى ، حتى إذا جاء اليوم الثامن ، أقيم لتنصيبه حفل ضخم يحضره الخاصة والعامة من أهل دارفور . أما عن سلطته المطلقة ، فربما كان مبعثها ما قر فى نفوس الناس من أن السلطان شخصية مقدسة يجب طاعتها طاعة عمياء . يبدو ذلك واضحاً من وصف التونسى لمجلس السلطان . من ذلك أنه إذا جلس السلطان فى ديوانه للحكم ، وقف خلفه الحرس الخاص المسمون كوركوا ، وجلس القضاة والفقهاء عن يمينه ويساره ، ووقف أمامه اثنان من الأمناء (الوزراء) ثم سبعة من المترجمين ليكونوا واسطة بين السلطان وأصحاب الدعاوى . ثم يدخل أصحاب الدعاوى جاثين على ركبهم ، وإذا حياهم السلطان مسحوا التراب بأيديهم . وإذا تكلم أحد فى مجلسه لايبدأ الكلام إلا بقوله « سلم على سيدنا » إن كان المتكلم عربياً إن كان فوراويا قال :

«أبا كورى دونجاجنى» ومعناها كذلك وإذا طال مجلس السلطان روح عليه خدمه بمراوح من ريش النعام ، وإذا خرج للصيد ، ظللوه بشمسية وأربع مراوح . وإذا وقع السلطان من على ظهر جواده ، وجب على من معه كائناً من كانوا ، أن يلقوا بأنفسهم من على ظهور الخيل . ومن خالف ذلك عوقب بأشد أنواع العقاب(١) .

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ١٥١ — ١٥٦ .

أما عن زى السلطان وشاراته فيذكر التونسى : أن السلطان يلبس قميصين من القماش الأبيض أو الأسود الرفيع المجلوب من مصر ، ويضع على رأسه كشميراً ويتلثم بلثام من القماش الأبيض ، ويضع على رأسه من هذا اللثام طيات ، وعلى أنفه وفمه لثاماً منه وكذلك على جبينه ، بحيث لايظهر منه سوى عيناه ، ويضع السلطان فى جنبه سيفاً وحجاباً مذهبين . وإذا سار رفعت أمامه سجاده(١) .

وعرف مجلس السلطان أو البلاط السلطانى باسم فاشر . ولما كان هذا المجلس يعقد عادة فى الخلاء أو فى الميدان الواسع أمام قصر السلطان ، فقد أطلق على هذا الميدان اسم فاشر . ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على قصر السلطان أو العاصمة التى يستقر فيه السلطان(٢) . وقد دأب السلاطين على التنقل بفاشرهم من منطقة إلى أخرى حسبما تقضى سياسة حفظ الأمن فى الداخل ، أو الدفاع عن حدود البلاد ، ضد أى معتد من الخارج ، حتى إذا كان عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد ، اتخذ فاشره فى تندلتى(٣) . ولم تلبث تندلتى هذه أن خلع عليها اسم الفاشر ، وهى مدينة الفاشر الحالية .

لا نعرف عن قصور السلاطين القدامى شيئاً ، وأول وصف للقصر السلطانى هو الذى ذكره التونسى خاصاً بقصر السلطان عبد الرحمن الرشيد وإبنه السلطان محمد فضل . ويبدو من الوصف أنه كان يقع على شاطىء خور تندلتى ، ومن حوله منازل أمراء البيت المالك والوزراء والفقهاء وكبار رجال الدولة . ولهذا القصر سور به بابان كبيران ، خصص أحدهما للرجال ويعرف باسم وزيديا ، وخصص ثانيهما للنساء ويعرف باسم وريبايا ويحتوى القصر من الداخل على ديوان للسلطان وخزائنه ، ومساكن نسائه وجواريه وحرسه الخاص (كوركوا)

---

(١) المصدر : السابق : ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) Barth, H.: Op. Cit., pp. 552-553.

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٢٧ — ١٢٩ .

وسواس خيله (السكورايات) ومحل النحاس . ويعرف كل من هذه المساكن باسم اللقدايه . وخصص لكل فئة من هذه الفئات أبواب خاصة للدخول والخروج بلغ عددها جميعاً ثمانيسة ، منها أربعة لأهل وريديا وأربعة لأهل وريبايا(١) .

وتقضى التقاليد أن يحافظ كل ذى منصب على موضع سكنه بالنسبة لقصر السلطان خلفاً عن سلف . فكل من تولى منصباً ، عليه أن يبنى بيته فى محل صاحب المنصب الأول أو قريبـاً منه ، ويحافظ هؤلاء على هذا النظام أثناء السفر كذلك(٢) .

ويحق للسلطان أن يقتنى من النسـاء عشرات ، أربعـاً منهن شرعيات والباقيات محظيات .

عرف أفراد الأسرة المالكة من الذكور بالأمراء ، عليهم رئيس منهم يحمل لقب باسى ، وهو المسئول عن سلوك أفراد الأسرة المالكة ، وترتيب زواج الأميرات(٣) . أما الأميرات فعرفن بإسم ميارم ، مفرده ميرم ، كما عرفت الأميرة الأولى بإسم إياباسى أما العجائز منهن فكن يعرفن بالحبوبات أما السيدة الأولى بالقصر السلطانى فإنها كانت تحمل لقب إيا كورى ، أى الملكة . وقد تكون الإيا كورى إحدى زوجات السلطان أو أمه أو أخته الكبرى . وتتمتع الإيا كورى بنفوذ واسع كذلك(٤) .

ويساعد السلطان فى تصريف الأمور فى الحكومة المركزية مجلس الأمناء ، أى الوزراء ، وعددهم أربعة ، رئيسهم الأب شيخ ، وهو الوزير الأعظم ، أى

---

(١) المصدر السابق : ص ١٧٣ — ١٨٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٨٧ .
(٣) Arkell, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, p. 44 n.
(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ .

obeikandi.com

رئيس الوزراء . ويتكون من هؤلاء وقاضى القضاة مجلس السلطان أو فاشره . ويبدو أنه كان لكل من أولئك الأمناء الأربعة عمل خاص فى الحكومة المركزية. فأمين على شئون العسكر (كوركوا) وأمين على خزائن وأموال الدولة ، وأمين على شئون الخيل والدواب السلطانية ، وأمين على الأسلحة . ويقوم مجلس الأمناء — فضلاً عن مساعدة السلطان فى تصريف شئون الدولة — باختيار السلطان الجديد عقب وفاة السلطان بعد استشارة وجوه القوم حسبما يقضى الرسم فى وراثة عرش السلطنة ، وللأمين مجلس وحرس وأمناء على مصالحه الخاصة مثل السلطان ، ما عدا شارات الملك . ولكل منهم إقطاع خاص وحرس خاص كذلك(١) .

أما منصب الأب شيخ ، فهو منصب الوزير الأعظم ، أى رئيس الوزراء ، والقائد العام للجيش السلطانى ، فضلاً عن أنه كان يتولى حكم الولاية الشرقية من مقره فى عاصمة السلطنة . والمعروف أن الرسم جرى فى دارفور ألا يتولى منصب الأب شيخ سوى عبد خصى ، ومع هذا تولاه محمد كرا على الرغم من أنه حر . والمعروف أن محمد كرا خصى نفسه ، ويبدو أن هذا كان كافياً فى نظر السلطان عبد الرحمن الرشيد لتوليته هذا المنصب الخطير . ثم أن الأب شيخ كان المرجع الأعلى لتفسير القانون المعروف بإسم « قانون دالى » .

ومن مناصب الإدارة المركزية ، منصب الكامنة ، ويطلق عليه الفور إسم « أبا فورى » . ويذكر التونسى ، أنه كان لصاحب هذا المنصب إقطاع كبيرة وعساكر كثيرة ويفعل مثلما يفعل السلطان . ويبدو أن صاحب هذا المنصب من سلالة ملوك الفور القدماء . وقد احتفظ بهذا المنصب الشرعى فى نظر الفور إلى جانب صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد وهو السلطان ويضيف التونسى : « إن من عادة الفور أن السلطان إذا قتل فى الحرب وسلم الكامنة ، حتى رجع

---

(١) El Tunsi : Voyage au Danfour, pp. 64, 65, 71, 85, 173, 174.

إلى محل الأمن ، يقتلونه ، لكى يخنقونه سراً ، ويولون غيره للسلطان المتولى . وإذا مات السلطان على فراشه لا يقتل الكامنة(١) .

ومن مناصب الإدارة المركزية كذلك منصب « أروندولونج » وصاحبه يقوم بعمل الحاجب فى القصر السلطانى ، وهو الحاكم العام للعاصمة والمسئول عن حفظ الأمن فيها(٢) .

ومن المناصب الهامة كذلك منصب السوميندقلة ، وصاحب هذا المنصب مسئول عن شئون الحريم السلطانى وتربية أبناء السلطان ، فضلاً عن أنه كاتم أسراره ، ومبعوثه الخاص . ولجماعة السوميندقلة رئيس يعرف بملك السوميندقلة وهو « منصب عظيم القدر ذو أبهة عظيمة وأقطاع » على قول التونسى(٣) .

وللسلطان حرس خاص من حاملى الحراب يعرفون بالكوركوا . ومن هذا الحرس توجد فرقة الموسيقى ، وفرقة المغنيين وحاملى القيثارات والطبول ومن إليهم(٤) .

واختص ملك الموجيه بإدخال السرور على قلب السلطان وتسليته(٥) ويشرف على خيل السلطان جماعة الكورايات(٦) .

وثم منصب هام هو منصب وريبايه ، ويختص بالإشراف على جميع الخصيان الموكل إليهم خدمة حريم السلطان ، ولذا فإن هذا المنصب لا يتولاه إلا خصى وهو الذى يتولى منصب الأب شيخ بعد وفاته ، وهو فضلاً عن ذلك صاحب

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٢) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 105.

(٣) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ — ٧٥ — ١٦٣ — ١٦٤ .

(٤) Voyage au Darfour, pp. 62, 161, 178.

(٥) التونسى : نفس المصدر ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٧ .

غضب السلطان ، ورئيس سجنه ، فإذا غضب السلطان على شخص ، عهد إلى وريبايه بزجه فى هذا السجن(١) .

ويلى هـذا المنصب منصب ملك العبيدية ، وهو الحاكم على جميع عبيد السلطان خارج القصر السلطانى وفى الأقاليم ، والمسئول عن مواشى السلطـان وآلات السفر من خيم وقرب وغيرها(٢) . ولقد جرت عادة سلاطين دارفور على جلب عدد من الأرقاء للعمل فى خدمة السلطنة . ومن هؤلاء يمكن أن نميز بين مجموعتين ، الأولى الأرقاء الذين جلبهم السلاطين ، ولا سيما السلطان تيراب ، أواخر القرن الثامن عشر من جبال نوبا بكردفان ، ومن هؤلاء العبيـدية الذين يعيشون حول كبكابيـة ، وكتم وكذلك اسادنجا الذين جلبوا من إقليم برنو . أما المجموعة الثانية فهى التى كانت فى أقصى الجنوب ، وكانت موزعة بين جنوب دارفور ، وشمال بحر الغزال ، وإقليم واداى ، وأطلق على هذه المجموعة زمن التونسى اسم فرتيت ، وهو اسم أطلقه العرب على القبائل الزنجية التى تعرضت لغزو العرب واسترقاقهم .

ويلى ملك العبيدية ، ملك القوارين ، أى المكاسين ، ويتبع صاحب هذا المنصب عدد من جباة الضرائب على التجارة الصادرة والواردة . ثم ملك الجبايين ويتبعه عـدد من الجباة الذين يقومون على جباية الضرائب عيناً من غـلال وحبوب ، وغيرها . ثم ملك الحدادين(٣) .

أما عن حكم الأقاليم ، فيبدو مما ذكره التونسى أن سلطنة دارفور حتى عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد ، وإبنه السلطان محمد فضل ، كانت تنقسم من الناحية الإدارية إلى أربع ولايات ، عرفت الواحدة منها بإسم دارفور ، ويلى الحـكم فيها

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥

وال من قبل السلطان ، كان بمثابة ملك "Vice-roy" وهم « أباديما » على ولاية جنوب غرب دارفور ، والتكنتياوى على الولاية الشمالية و« أباومانج » على ولاية جنوب شرق دارفور ، والأب شيخ على الولاية الشرقية بالإضافة إلى عمله الأصلى الذى سبقت الإشارة إليه .

ويذكر التونسى ، أنه أطلق على كل واحد من أولئك الولاة لقب خاص يدل على علاقته بالسلطان ،وهى ألقاب مشتقه من جسم السلطان .غير أن ناختيجال لا يوافق التونسى على ذلك ، ويرى أن مناصب الولاة الثلاثة أباديما، والتكنتياوى، وأباوما ، كانت وراثيـة ، وأن كلا منهم ينتمى إلى بطن من بطون الفور . أما الولاية الشرقية التى كان يليها الأب شـيخ ، فإنها لم تكن كذلك . لأن واليها خصى .

وتذكر المراجع أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر تعدل هذا النظام ، وتحولت الولايات الأربع الكبرى فيما بعد إلى مقدوميات مفردها مقدومية ، على كل منها مقدوم . يلى منصبه بطريق التعيين ، حتى لا يزداد نفوذ الولاة القدامى على حساب السلطان . كما ألغى منصب الأب شيخ بعد النزاع الذى نشب بين الأب شيخ محمد كرا ، والسلطان محمـد فضل . وأبقى النظام الجديد على مناصب أباديما والتكنتياوى وأباوما إلى جانب المقاديم ، وهو ما يعرف بالنظام المزدوج . واختلفت طبيعة نفوذ كل من الولاة القـدامى قوة وضعفاً من مقدومية إلى أخرى . مثال ذلك أن أباوما (أو منجاوى) لم يتعد نفوذه منطقه صغيرة فى جنوب شرق جبل مرة ، على حين أن أباديما (ديماجاوى) ظل قوة لها خطرها فى جنوب غرب دارفور . أما التكنتياوى فإنه خضع خضوعاً تاماً لمقدوم الشمال . وظل هذ االنظام حتى نهاية حكم على دينار سنه ١٩١٦ م .

أما عن سلطة الوالى أو المقدوم ، فإنها كانت مطلقة،فله على الناس الخاضعين لسلطانه حق الحياة أو الموت ، ما عدا بعض الحـالات الخاصة التى يرجع فيها

إلى السلطان . ويتمتع الوالى أو المقدوم فى إقليمـه بكل ما يتمتع به السلطان فى بلاطه من مظاهر ، مثال ذلك أن له حاجباً (أرولندولنج) وحرساً خاصاً (كوركوا) وجيشاً خاصاً كذلك .

وتنقسم كل ولاية أو مقدومية إلى إثنتا عشرة شرتايه ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالشرتاى ، والجمـع شراتى ، وتنقسم الشرتيـايات إلى عـدد من الدملجيات ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالدملج ، وهو شيخ القبيلة . ويبدو أن لفظ دملج ، لفظ عامى معرب معنـاه « أسورة تلبس فوق المرفق » ويطلق على الدملج فى لغة الفور اسم دلمنج "Dilmong" ويتبع الدملج عدد من مشايخ القرى يعرفون عادة بالملوك ، ويطلق الفور عليهم إسم سجالا Sagala مفرده سجال Sagal .

ويبدو أن لقب ملك من الألقاب الشائعـة فى دارفور وقد استعاره الفور من العرب وأطلقوه دون تمييز على كل ذى سلطة أو نفوذ ، من شيخ القرية إلى سلطان دارفور نفسه . أما العربان سواء من البقارة أو من الأبالة ، فكان على كل قبيلة منها رئيس ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بالسلاطين الصغار وذلك للتفريق بينهم وبين سلطان دارفور . ويتم تعيين هؤلاء السلاطين الصغار بفرمان من السلطان ، ويتبعون واحداً من الولاة أو المقاديم السابق ذكرهم .

وجرت عادة حكام الأقاليم فى دارفور أن يرسلوا أولياء عهودهم إلى قصر السلطان ليظلوا رهائن عنده . وبذا يضمن السلطان ولاء آبائهم له من ناحيـة ، ويضمن من ناحية أخرى ولاء هؤلاء عندما يتقلدون حكم بلادهم . ولذا خصص السلطان لأولياء العهد وأبنائه وأبناء الأمراء منزلاً خاصاً ملحقاً بقصره ، وعهـد إلى سومينداقلة بالإشراف على تربيتهم . وتعليمهم القراءة والكتابة . وقد يكون من بين هؤلاء دادات السلطان مستقبلاً .

والدادات هم الذين تربوا ونشأوا مع السلطان منذ نعومة أظفارهم .

obeikandl.com

أما عن نظام الملكية فى سلطنة دارفور ، فالمراجع تشير دائماً إلى أن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، يقطعها لمن يشاء من رعاياه . وقد قسم سلاطين دارفور الأراضى الزراعية إلى حواكير (مفردها حاكورة ، أى إقطاع) وأقطعوها لأفراد البيت المالك وخاصتهم وكذلك الفقهاء وكبار رجال الدولة ، بمقتضى حجج مختومة بأختامهم . فعاش هؤلاء والقائمون على زراعتها ماتنتجه هذه الحواكير من محاصيل . كما قسم السلاطين قبائل البادية على الأمراء . وفيما يلى نص وثيقة إقطاع كتبها السلطان عبد الرحمن الرشيد للفقيه عمر التونسى ، أبى الرحالة المشهور محمد بن عمر التونسى(١) : « من حضرة السلطان الأعظم والملاذ الأفخم ، سلطان العرب والعجم ، ومالك رقاب الأمم ، سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، الواثق بعناية الملك المبدى المعين ، السلطان عبد الرحمن الرشيد . إلى حضرة الملوك والحكام والشراتى والدمالج وأولاد السلاطين ، والجبايين ، وأهل دولة السلطان من العرب والسودان أما بعد : فإن السلطان المذكور المبرر ، المؤيد المظفر ، المنصور تفضل وأمد بمعونته وأعطى العلامة السيد الشريف عمر التونسى ، قطعة من الأرض كائنة بأبى الجدول ، حاوية لثلاث حلل من حلة جولتو والدبة وأم بعوضة ، بحدودها المعروفة ، وأتخامها الموصوفة حسبما حدده الملك جوهر للملك خميس عرفان . لايعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع من أهل المملوكة خصوصاً جبابى العيش . يتصرف فيها بأى نوع من وجوه التصرفات شاء ، هبة لوجه الله تعالى ، وطلباً لاثواب فى المثاب ، والحذر ثم الحذر من الخلاف ، والتعرض من الخاص أو العام » .

ويذكر التونسى أن الحكام يسخرون رعاياهم فى زراعة حواكيرهم ، دخناً وذرة وسمسماً وفولاً وقطناً ، ثم يحصدونها ويدرسونها لهم قهراً عليهم . ويقوم أولئك الحكام ببيع هذه المحاصيل وشراء ما يلزم لجيوشهم من خيل وأسلحة .

---

(١) التونسي : نفس المصدر ، ص ٦٤ — ٦٥ .

obeikandi.com

ولهؤلاء الحكام — فضلاً عما تنتجه حواكيرهم من محاصيل — مصادر أخرى للدخل منها، الهامل، أى الضال من رقيق وبقر وغنم وحمير، ومنها التقادم، وهى الهدية التى تقدمها إليه الرعية حين قدومه عليهم من عند السلطان حاملا فرمان التولية. ومنها: الخطية، أو الحكم وهى الغرامة التى تحصل ممن تثبت إدانته فى قضية من القضايا المعروضة عليهم للفصل فيها.

أما الإيرادات التى ينفق منها السلطان على قصره وحاشيته وجيشه، فإن لها مصادر مختلفة منها عشر الحبوب التى يجبيها ملك الجبايين ومساعدوه من الحضر. ويقال إن نصيب السلطان من هذه الحبوب يحفظ فى مطامير أو مخازن خاصة لحين الحاجة إليها. أما البدو فتجبى منهم زكاة الماشية. وللسلطان عشر قيمة المتاجر الصادرة أو الواردة، كما أن له نصيباً من الأسلحة التى تنتجها جماعة الحدادين، هذا فضلاً عما يدخل خزينة السلطان من هدايا أصحاب الحواكير، والتجار، والحكام على مختلف طبقاتهم. ذلك أن العرف جرى فى دارفور، ألا يدخل أحد من هؤلاء على السلطان إلا ومعه هدية تعرف «بالسلام» وتشتمل هذه الهدية فى الغالب على رقيق وإبل وخيل وبقر وغنم وتكاكى وعسل وسمن وسن ريش.

أما القضاء فى دارفور فكان يتمشى مع أحكام الشريعة الإسلامية ولا سيما فى المناطق التى غلب عليها الطابع العربى الإسلامى، ويتولى النظر فى القضايا فى هذه الأقاليم قضاة تابعون لقاضى القضاة فى العاصمة.

أما المناطق التى لم يتخل سكانها عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة، فكانت تطبق عليهم أحكام القانون المعروف بإسم «قانون دالى[1]» ولفظ دالى هذا معناه فى لغة الفور «لسان» وقد يكون المقصود به (لسان السلطان أو أوامره)

---

(١) راجع شقير، جـ ٢، ص ١٣٧ — ١٣٨

وتذكر بعض الروايات أن هذا القانون ينسب إلى السلطان دالى وهو الذى جمعه وسجله فى كتاب عرف بكتاب دالى . وكيفما كان الأمر فإن هذا القانون استمد أحكامه من عادات أهل البلاد وتقاليدهم . ويقوم على تنفيذ أحكامه وتطبيقها الولاة والشراتى وأصحاب الحواكير . ومن أحكام هذا القانون على سبيل المثال :

١) أن يكون الملك وراثياً للابن الأكبر ، إلا إذا كان غير لائق للأحكام فيولون غيره ممن يتمتع باللياقة من أفراد الأسرة المالكة .

٢) قصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها ، فإذا لم يقدمها حبس إلى أن يفتديه أهله .

٣) قصاص القاتل ، القتل ، إذا كان القتل عمداً ، وإلا فدفع الدية : مائة بقرة إذا كان من البقارة ، أو مائة إبل إذا كان من الأبالة .

٤) أما الزانى ، فإن زنى بمحصنة فغرامته ٦ بقرات ، أوبايثم فبقرة واحدة ، أو بيكر فكل منهما يغرم بقرة .

٥) وقصاص الضارب . فإن كان فى الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور ، وإن لم يكن جرح ، فنصف ثوب . وهكذا جزاء الشاتم .

ويلاحظ أن كل هذه الغرامات يتقاضاها الحكام ، ويتقاسمونها مع السلطان ، ولذلك ما عدا دية القتل ، فإنهم يشاركون فيها أهل القتيل .

مصطفى محمد مسعد